مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/111
ISSN: 2437-0584/ EISSN: 2437-0584
المجلد الثامن ،العدد الثالث ،جوان 2023، ص- ص1121-1137 .

إشكالية ضبط المصطلح في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية"نحو تأصيل الدلالات والمفاهيم".

The problem of controlling the term in the history of the Algerian national movement "Towards anchoring semantics and concepts ".

د. مولود قرين(*)
جامعة الدكتور يحي فارس المدية (الجزائر)، moulodgrine@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/01/ 21 **تاريخ القبول:** 2023/04/ 02 **تاريخ النشر:** 2023/06/ 10

الملخص: ضبط المصطلح والتحكم فيه يعد شرطاً أساسيا في التمكن في أي علم من العلوم خاصة في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ولعلّ من أهم العلوم التي تتطلب دقة في تحديد المصطلح "علم التاريخ" خاصة تاريخ الجزائر المعاصر (تاريخ الحركة الوطنية والثورة التحريرية)، فالمصطلحات الموظفة في هذا التخصص لا زالت تثير جدلا كبيراً بين المؤرخين والباحثين سواء الجزائريين منهم أو الأجانب. ولعل ما زاد الطين بلة إن صح التعبير، هي ما تحمله المصطلحات من إيديولوجيات متباينة، وما تشير إليه من خلفيات، وهذا ما يؤثر على الموضوعية العلمية، ويجعل الكتابة مؤدلجة أكثر منها علمية، لذلك سنحاول في هذه الدراسة المتواضعة أن نعالج إشكالية ضبط المصطلح في تاريخ الحركة الوطنية ونعطي نماذج من المصطلحات التي وظفتها المدرستين التاريخيتين الجزائرية والفرنسية ونبرز الفرق بينهما.

الكلمات الدالة: إشكالية المصطلح، الحركة الوطنية، المدرسة التاريخية الجزائرية، المدرسة التاريخية الفرنسية، الاستعمار، النخبة، النهضة.

Abstrac: Regulating and controlling the term is a prerequisite for mastery of any science, especially in the humanities and social sciences, and perhaps one of the most important sciences that requires accuracy in defining the term "history science" especially the contemporary history of Algeria (the history of the national movement and the editorial revolution), so the terminology employed in this Specialization still raises great controversy between historians and researchers, whether Algerian or foreign. Perhaps what made matters worse, if you will, is what the terminology carries from different ideologies and what it refers to from backgrounds, and

* المؤلف المرسل.

	this affects the scientific objectivity and makes writing more ideological than scientific, so we will try in this humble study to address the problem of controlling the term in the history The national movement. We give examples of terms used by the Algerian and French historical schools, and highlight the difference between them.
Keywords:	problematic term, national movement, Algerian historical school, French historical school, colonialism, elite, Renaissance.

1. مقدمة:

بعد نصف قرن ونيف من الاستقلال لازلت الدعوة إلى إعادة كتابة التاريخ الجزائر وتحريره من الاستعمار « Décoloniser l'histoire » على حد تعبير "مُحَّد الشريف الساحلي" ضرورة ملحة في نظر الباحثين ومؤسسات البحث المختلفة، وما يزيد من القضية إلحاحاً هو عدم قدرتنا على التخلص من إرث المدرسة التاريخية الفرنسية، فبالاطلاع على ما أنجز في الجامعة الجزائرية من دراسات تاريخية تتعلق بتاريخ الجزائر بكل عصوره سيما تاريخ الحركة الوطنية والثورة الجزائرية (1830-1962م)[1]، نلاحظ أننا لازلنا في تبعية شبه مطلقة لما أنتجته ولازالت تنتجه المدرسة التاريخية الفرنسية ذات الخلفيات الاستعمارية.

ورغم جهود أقطاب (المدرسة التاريخية الجزائرية) في محاولاتهم للرّد وتفنيد مزاعم الكتابات الاستعمارية، إلاّ أن كتاباتهم اتصفت بأنها كتابات "ملتزمة"، قابلت غلوّ مدرسة "استعمارية" بغلوّ "مدرسة وطنية"[2]. هذا ما ساهم على ما يبدو في تأخر ميلاد "مدرسة تاريخية جزائرية" واضحة المعالم في منهجها وفي مصطلحاتها وفي أهدافها، فلا زلت الضبابية تشوب الكثير من القضايا التاريخية، وما زلنا إلى حد الساعة منساقين وراء طروحات المدرسة التاريخية الفرنسية متبنين مصطلحاتها وكذا تقسيماتها في تناول التاريخ الوطني عامة وتاريخ الحركة الوطنية خاصة.

لذلك فقد آن الأوان على ما يبدو في السعي لتحقيق أمل شيخ المؤرخين الجزائريين أبو القاسم "سعد الله" عندما تساءل: " متى يتحقق هذا الأمل؟"[3]، أمل ميلاد مدرسة تاريخية جزائرية أصيلة، ولعلّ ذلك لن يتأتى إلاّ بعد إخضاع لما أنتج من دراسات لنقد بناء وتقييم صارم على ضوء ما أتيح من رصيد ضخم من مادة تاريخية، وانطلاقاً كذلك من تطور العلوم

المساعدة لفهم علم التاريخ، وذلك لفهم بعض من الزوايا الغامضة من تاريخنا والتي كانت من قبل بمثابة المسلّمات.

ولعلّ أول خطوة في تلك العملية تكون انطلاقاً من إعادة النظر في المصطلحات الموظفة، خاصة وأن "الاستعمار منذ بدايته قد وظّف التاريخ لتبرير وجوده وسياسته بها، وذلك من خلال انتقائه للفترات التاريخية التي اهتم بها والمواضيع التي عالجها"[4].

لذلك سنحاول في هذه الدراسة مناقشة بعض المصطلحات الموظفة في تاريخ الجزائر المعاصرانطلاقاً من الإشكالية التالية:

هل المصطلحات الموظفة في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية تحمل دلالة علمية حقيقية؟ أم أنها تخدم مشروع إيديولوجي ما سواء كان استعماري أم وطني ملتزم ولو كان ذلك الالتزام على حساب الحقيقة التاريخية.

2. مصطلحات تاريخ الجزائر بين التوظيف الكولونيالي والمدلول الحقيقي:

لكل علم مصطلحاته الخاصة به وهي بمثابة الفتاح الذي يمكننا من الولوج في ذلك العلم وفهمه فهماً دقيقا، لذلك بات الاهتمام بعلم المصطلح من أولويات كل العلوم، ومن ثم يكون أداة طيعة للحوار البنّاء بين العلماء والباحثين ، ويفتح لهم قناة ثانية ليتواصلوا مع جمهور المتلقين بالقدر الذي يضفي على إنتاجهم فرصة واضحة لينال التقدير ويحظى بالتوظيف[5]. وعدم تحديد المصطلحات بدقة يؤدي حسب رأي "مالك بن نبي" إلى "مناقشات أقرب إلى الطابع الأدبي منها إلى منطق العلم... أن هذه المناقشات لا تعين على جلاء الموضوع بل تجعله أكثر صعوبة"[6]. وذلك لما يشكله المصطلح في حد من أهمية في عملية البناء التاريخي، إذ بواسطته يمكن فهم الدينامكية التاريخية للمجتمعات، وكذا امتلاكه للقوة والإيجاز في التعبير عن الحوادث التاريخية وفهمها فهما دقيقا.

في الواقع لا يمكن الاحاطة بكل المصطلحات الموظفة في التأريخ للحركة الوطنية الجزائرية، لذلك سنحاول الاقتصار على مناقشة بعض المصطلحات التي نعتقد بأنها بمثابة مفاتيح لفهم تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1962م)، والتي يمكن اجمالها في ما يلي:

3. الاستعمار: هل هو استدمار أم احتلال؟:

ناقش الأستاذ "مولود قاسم نايت بلقاسم" قضية الاستعمار انطلاقا من معناها اللغوي، فهي حسبه منافية لما تحمله الكلمة من دلالات لغوية في اللغة العربية. فمصطلح الاستعمار المرادف للكلمة الفرنسية (La Colonisation) التي دخلت إلى اللغة الفرنسية سنة 1895م، وأدرجت ضمن القاموس الفرنسي لأول مرة سنة 1931م[7]، وتعني تعمير الأرض، ولكن حقيقة الاستعمار عكس ذلك تماما، فهو تدمير، فيقول "نايت بلقاسم" بأن الاستعمار استدمار ولا يمكن أن يكون استعمارا لان الاستعمار من تعمير الأرض أو إعمارها [8].

على الرغم من أن اسقاطات "نايت بلقاسم" كانت سليمة لغوياً وتاريخياً، ولكن ما مدى نجاعة مصطلح الاستدمار في الدراسات التاريخية؟. يبدو من الوهلة الأولى أن المصطلح نابع عن عاطفة وعن ذاتية تتنافى تماماً والموضوعية المنشودة في الدراسات التاريخية الأكاديمية، وهذا لا يعني البتة سلامة مصطلح الاستعمار الذي وظف بعناية قصوة من طرف الأوروبيين للتعبير عن رسالتهم الحضارية المزعومة إلى العالم الثالث في إفريقيا وأسيا[9].

لذا المصطلح الذي يجب أن يوظف ويكون مصطلح علمي قادر على التعبير بموضوعية عن الحقيقة التاريخية هو مصطلح "الاحتلال الاستيطاني"، الذي يحمل دلالات لغوية معبرة فعلاً عن حقيقة تلك العملية. فالاحتلال في قواميس اللغة العربية يعني دخول البلاد والاستلاء على أراضيها قهرا وغزوا[10]، وهذا ما حدث فعلاً بعد الحملة الفرنسية على الجزائر سنة 1830م. أمّا الاستيطان فهو من مصدر (استوطن) ويقصد به حالة استقرار الكائن الدّخيل في الموطن الجديد، مثل الاستيطان الأوروبي في الجزائر بعد الاحتلال. إذن فالأنسب وصفه بـ "الاحتلال الاستيطاني"، وهذا ما يجّرنا إلى إعادة النظر في مصطلح المعمّر، الذي الأصل فيه أنه جاء ليعمّر الأرض ويخدمها، في حين أن المستوطن الأوروبي جاء ليستوطن أرض عنوة، مستأثراً بخيراتها، والأدهى من ذلك كله أنه نفى صفة الجزائرية على صاحب الأرض الشرعي ليستأثر بها لنفسه، فأدبياتهم تشير إلى أنهم هم (الجزائريون) فكانوا يرددون: Nous Sommes Les Algériens ، أما الساكن الأصلي فأطلقوا عليه مصطلح "الأهالي" (Indigène)، أو

العربي أو المسلم . يبدوا أن كل ذلك لم يكن عشوائياً، وإنما كان يتم في مخابر بحث، تصدى لها مستشرقون ومنظرون يهدفون إلى ضرب الجزائري في العمق حتي يمكن تحقيق حلم "الجزائر فرنسية" تحت غطاء شرعي، وهذا ما يفسر إلى حد كبير انتقائهم للمصطلحات التي أطلقوها على ردود فعل الجزائريين في إطار الحركة الوطنية.

4. مصطلح الحركة الوطنية الجزائرية:

الاعتقاد الراسخ لدى الكثير من الدارسين لتاريخ الجزائر المعاصر هو أن الحركة الوطنية الجزائرية هي ذلك النشاط السياسي الذي عرفته الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى في شكل أحزاب سياسية وجمعيات ونوادي ثقافية، غير أن الدارس المتمعن، سيلاحظ بأن ذلك المفهوم وليد المدرسة التاريخية الاستعمارية التي ادعت بأن الحركة الوطنية هي وليدة عشرينيات القرن الماضي محاولة بذلك الطرح إضفاء طابع الاستكانة والخنوع على المجتمع الجزائري من جهة، ومن جهة أخرى مبررين زعم رواد الغزو من فلاسفة وسياسيين ومؤرخين الذين وصلوا إلى درجة نفي الأمة الجزائرية قبل 1830م من بين هؤلاء المؤرخ "ج. سودرون" الذي يزعم بأن الجزائر عام 1830م لم تكن تشكل دولة فما بالك أمة، وأنه لم تكن لها حدود، وكذلك روبير آرون الذي قال: "بأن الجزائر لما وصل الفرنسيون لم تكن قطرا مستقلا"، أما بوسكي صاحب الأراء الاستعمارية المتطرفة فيزعم بأن فرنسا هي من صنعت إسماً للجزائر"[11].

فالافتراء على تاريخ الجزائر عامة وعلى تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية خاصة كان سمة بارزة في أغلب الكتابات المدرسة التاريخية المعاصرة، خاصة في كتابات "شارل روبير أجرون"، و"أندري نوشي" و"جيلبرت مينيي"، و"غي بيرفيلي" وغيرهم، فمثلا "منيي" في اطروحته "الجزائر المستيقضة 1914-1918م" يحاول أن يبرز أن ميلاد الوطنية الجزائرية كان بعد الحرب العالمية الأولى، وهذا ما نلمسه في تقديم Pierre VIDAL –NAQUET الذي يرى بأن "ميني" قد اختار عنواناً معبراً عن الموضوع بدقة، وأنه يمكن أن يستبدل بعنوان "ميلاد الوطنية" Naissance d' une nation، وهو بذلك حسب رأيه دائماً يتماشى وطرح أغلب المؤرخين أمثال "شارل أندري جوليان" في كتابه "إفريقيا الشمالية تسير" و"أندري نوشي" في

كتابه "ميلاد الوطنية الجزائرية" فكلهم يشيرون إلى دور الحرب العالمية الأولى في تشكل الوطنية الجزائرية[12].

غير أن الحقيقة عكس ذلك تماماً، فالحركة الوطنية يقصد بها كل سلوك ورفض أبداه الشعب الجزائري منذ 1830م بمختلف الوسائل المتاحة، وقد تراوح ذلك الرفض ما بين العمل العسكري التصادمي القائم على مجابهة العدو عسكريا، والعمل الفكري والسياسي القائم على تأسيس الجمعيات والنوادي الثقافية، والصحافة، وإرسال الوفود والعرائض وتأسيس الأحزاب ...إلخ[13]. فجذور الحركة الوطنية الجزائرية تعود إلى أول يوم نزل فيه الغزاة الفرنسين على شواطئ "سيدي فرج"، فكل مقاومة ورفض يمكن إدراجه ضمن الحركة الوطنية، لأن لولا الشعور الوطني، ولولا خشيت الجزائري وخوفه على هويته ودينه وأرضه ما تصدى للاستعمار أو سياسته التعسفية.

5. الانبعاث الثقافي في الجزائر هل هو نهضة أم يقظة؟:

لم يرد مصطلح النهضة في أدبيات دعاة "النهضة" خلال القرن التاسع عشر، فاكتفوا بالدعوة إلى الأخذ بأسباب التقدم[14]، حتى أن مؤرخ هذا العصر "ألبرت حوراني" (1915-1993م)، لم يستخدم مصطلح النهضة، وإنما عنون دراسته ب:"الفكر العربي في لعصر اللبيرالي (Arabic Thout in the Liberal Age)، بنما مترجم الكتاب "كريم عزقول" استخدم مصطلح النهضة بدل الفكر العربي، وذلك للإشارة إلى مجمل التطورات التي شهدها الفكر العربي منذ بداية القرن التاسع عشر. أما بالنسبة للمصطلح في الجزائر فقد وظف من طرف الكثيرين الذين أرخو لفترة أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن 20م، ومن أشهر المؤرخين الذين واستخدموا المصطلح كعناوين لدراساتهم وبحوثهم نجد: الأستاذ "دبوز مُحَمَّد علي" في كتابه ، "نهضة الجزائر وثورتها المباركة"[15]، وكذلك مقال "سعد الدين بن شنب" "النهضة العربية في الجزائر في النصف الأول من القرن الرابع عشر هجري" في العدد الأول من مجلة كلية الأداب بجامعة الجزائر سنة 1964م[16].

لقد سار على درب هؤلاء الرواد أغلب المؤرخين المعاصرين خاصة الأكاديميين منهم "أبي القاسم سعد الله" في أطروحته تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية الجزء الثاني، فخصص لها فصلاً كاملاً (الفصل الثالث) ليبرز معالمها ومظاهرها ونتائجها[17]. وأراد "سعد الله" بذلك المصطلح التعبير عن ذلك الحراك الثقافي الذي شهدته الجزائر في مطلع القرن العشرين والمتمثل في إنشاء الصحافة، وتأسيس الجمعيات والنوادي الثقافي، ونشاط النخبة بشقيها المعرب والمفرنس التي دعت إلى ضرورة النهوض بالمجتمع الجزائري.

ولكن هل ذلك الحراك يرقى إلى وصفه بأنه كان "نهضة"، خاصة وأنا مصطلح النهضة مصطلح وظف في أوربا (Renaissance) للدلالة على إعادة الولادة والإحياء من جديد، أما في العالم العربي فمصطلح النهضة يعبر عن المعنى الحقيقي لمحتواه اللفظي كحركة تاريخية قامت ضد الجمود و الركود، فالنهضة من فعل نهض تعني" قام من مقعده، و عن سريره، و عن الأرض و بسرعة و بدأ المسير، قام ليذهب إلى الآخر أو للوثوب إلى آخر...الخ "، بهذا المعنى تكون النهضة العربية مرادفة لعملية الوثب و السير قدما في سبيل تحقيق غرض ما، و عملت على استلهام النموذج الغربي و طريقة صعوده من وجهة كمية وانتقائية لمفاهيم من داخل التراث الإسلامي، و إعطائها تفسيرات جديدة تتلائم مع الواقع الراهن. ويذهب المفكر عمر فاخوري إلى اعتبار" النهضة" رد فعل تاريخي واع بحاضر و ماض عربيين متأزمين، مبّينا مرتكزاتها الفكرية و العقائدية و الثقافية و الحضارية و التاريخية من خلال قراءته للتاريخ العربي الإسلامي فنراه يلّح على التراث، دور الأفراد و الجماعات في صنع الحضارة"[18].

ولكن هل حققت النهضة في العالم العربي عامة وفي الجزائر خاصة ما حققته النهضة الأوروبية من نتائج؟، أكيد الإيجابة تكون بالنفي، لأنه رغم ما حققه ذلك الحرك من تحريك للمشاعر الوطنية والرغبة الشديدة للخروج من دائرة التخلف، إلا أنه ذلك لا يرقى أن يكون نهضة التي تعني القطيعة مع مظاهر التخلف، فذلك لا يعدو إلا أن يكون مجرد يقظة على وقع الحركات الاستعمارية المتنامية، ثم العودة إلى "النوم" من جديد منذ النصف الأول من القرن العشرين إلى يومنا هذا !.

6. اشكالية النخبوية في الجزائر:

من أهمّ المصطلحات والمفاهيم التي دار النقاش حولها كثيرا، وحاولت المدرسة التاريخية الاستعمارية أن تستثمرها لصالح المشروع الاستعماري مصطلح "النخبة"، فالمستقرئ لمختلف الأدبيات الكولونيالية يستشف أنها قرنته بفئة الجزائريين المفرنسين الذين تعلموا في المدارس الفرنسية وتأثروا بالثقافة الغربية وانبهروا بعظمة فرنسا، واقتنعوا بأن الجندي والمعلم الفرنسي رسول حضارة وسلام في الجزائر، من بينهم : "جورج مارسي"(G. Marçais) مدير مدرسة تلمسان، الذي عرفّها عندما توجه مخاطباً لهذه الفئة بقوله : "...إنكم أنتم المتجذرون في التراب الجزائري، والمتخرجون من ثانوياتنا ومدارسنا، والذين تدلون برأيكم حول المسائل التي تهمنا دون عاطفة ودون مواقف مسبقة (...) بواسطة ثقافتكم، التي تأتي لتدعيم أصلكم، تنتمون لما يمكن أن نسميه بكل شرعية "النخبة"، إنّها تسمية شرعية كما تعلمون، وهي تسمية تصف بالضبط ما يتعارف عليه الجميع من صفات "النخبة"، والمقصود طبعا اتصافها بصفات أوروبية معينة، وهي مكونة من بعض المحامين، وبعض الأطباء الأشراف، وجيش هام من الصحفيين المهرة، والأكثر جدارة بالذكر المدرسون الواعون بالدور الحاسم الذي ألقته فرنسا على عواتقهم (...) إن النخبة التي تنتمون إليها تبدو لي العنصر الأكثر فائدة للوحدة بين الشعوب، لأنها تغذت من الثقافة العربية وأمكنها أن تتخلق بالآداب الفرنسية..."[19]."فمارسي" رغم إقراره بأن النخبة هي التي جمعت بين الثقافتين الغربية والعربية الإسلامية، إلا أنه يجعل من الثقافة الغربية هي المعيار الأول في تصنيفه، لأن الثقافة الغربية هي التي تخول لهؤلاء – حسبه–أن يتبؤوا المناصب التي أشار إليها وتجعلهم قادرين على لعب دور الوسيط بينها وبين الأهالي، أو "القنطرة التي تجتاز عليها الثقافة الفرنسية إلى معاقل الثقافة الوطنية" على حدّ تعبير "سعد الله".

أمّا "موريس أجام" (Maurice Ajam) الذي زار الجزائر سنة 1912م، فقد عرّفها بقوله: "إنها الطبقة المتخرجة من مدارسنا المتحررة من المعتقدات الدينية، المرتدية للباس الأوربي، ولكن تأكدوا بأنهم لن يتخلوا عن الطربوش"[20]. أما الأكاديمي والأستاذ السابق في ثانوية الجزائر

السيد "برتران" ، فقد ربط التطور الحاصل في الجزائر بتطور التعليم الفرنسي الذي أفرز – في اعتقاده– جيلاً جديدا من الشباب الأهالي المثقفين لا يقلون ثقافة عن الفرنسيين أنفسهم[21].

كما أن المنتمين إلى النخبة المفرنسة قد ساروا على نهج هؤلاء المستشرقين في المفاهيم التي صاغوها، من بينهم "شريف بن حبيلس") أحد وجوه النخبة البارزين في الربع الأول من القرن العشرين، فقد قال عنها : "...إنها مجوعة الشبان المتكونين في الجامعات الفرنسية والذين كانوا قادرين بأعمالهم أن يصعدوا فوق الجماهير وأن يضعوا أنفسهم في مصاف ناشري الحضارة الحقيقيين"، وضمن النخبة يندرج – في منظور بن حبيلس– الأطباء والمعلمون والعسكريون الأهالي والقضاة، وهذا تقريباً نفس رأي "إسماعيل حامت" الذي قدم لنا نماذج من أفراد هذه النخبة في كتابه: "المسلمون الفرنسيون في شمال إفريقيا" (Les Musulmans français du Nord de l'Afrique)[22].

وفي نفس السّياق يعرفها المؤرخون الفرنسيون المعاصرون، فـ"أجرون" الّذي يشير إليها تارة "بحركة الشباب" الجزائري، وتارة أخرى بـ "المتطورين" بأنهم بضع عشرات من المتفرنسين الذين تلقوا تعليمهم في مختلف المدارس الفرنسية في الجزائر، والذين لفتوا أنظار لجنة التحقيق التي قادها "جول فيري"(Jules Ferry)سنة 1892م، وتظم هذه الفئة حسب "أجرون": الأطباء، المحامين، والمعلمين أصحاب الشهدات سواء من المدارس أو المعاهد، والضباط، والمترجمين العسكريين، والمترجمين في سلك القضاء، والمساعدين الإداريين، والصحافيين، والمزارعين الأهالي وأصحاب الحرف"، ولا يتوانى "أجرون" رغم معرفته الدقيقة بتطور تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية في الاعتقاد بأن هذه الفئة ما هي إلاّ صدى لحركة "تونس الفتاة"، فحركة الشباب الجزائري حسب زعمه تستلهم أفكارها وبرنامج عملها من نشاط النخبة التونسية التي كانت كمثال يحتذي به الشبان الجزائريون[23].

أما "غي برفيي"(Guy Perveille) في أطروحته الأكاديمية فيعرفها بأنها الفئة القليلة المحظوظة من مزايا التعليم الفرنسي، التي تشكلت عن قصد من الإدارة الفرنسية لتكون واسطة بينها وبين جموع الأهالي، وقسمها "برفيي" إلى نخبة دنيا وتظم كل من "ضباط فرق الأهالي

الذين جندوا عشية الاحتلال، وتلاميذ المدارس العربية الرسمية الثلاث التي تأسست سنة 1850 وكان منهم القضاة وعلماء الدين ومدرسو اللغة العربية، والمعلمون الذين تلقوا تكوينهم في مدارس ترشيح المعلمين في مدينة الجزائر منذ 1865م ثم ببوزريعة سنة 1887م، وأعوان الصحة، ونخبة عليا متكونة من قدماء الطلبة خريجي الجامعات الفرنسية، وهي فئة مثقفة تولي اهتماما خاصاً بكبريات المشاكل، ولقد تلقوا نفس التكوين الذي تلقاه موظفو القطاع الإداري والاقتصادي بفرنسا[24].

الظاهر على جلّ هذه التعاريف أنّها ركزت على دور المدرسة الفرنسية في تكوين النخب، وحصرت "النخبوية" في فئة قليلة من المجتمع الجزائري، كان لها الحظ في ولوج المدرسة الفرنسية فتشربت الثقافة الغربية واعتبرتها أنموذجا للنهوض بالمجتمع الجزائري.

ولكن إذا اعتبرنا أن المستوى الثقافي، والقدرة على التأثير وقيادة الجماهير هي معايير التصنيف في المجتمع، فإننا سنلاحظ بدون شك أن النخبة "المفرنسة" هي جزء من فئات النخبة الجزائرية وعناصرها الريادية التي تعددت أطر مرجعياتها الفكرية وأصولها الاجتماعية وتصوراتها للمجتمع الجزائري في ظل الاستعمار الفرنسي. فالمؤكد أن هذه الفئة من النخبة لا تمثل النخبة كلها، بل هي جزء من أطياف النخبة الجديدة التي عرفتها الجزائر في أواخر القرن التاسع عشر، والمتمثلة إلى جانب المفرنسين، في النخبة المعرّبة التي تلقت تكوينها إماّ في المؤسسات التربوية التقليدية في الجزائر، أو المتخرجة من الحواضر العلمية في المشرق أو المغرب (الأزهر، الزيتونة، القرويين)، وهذا ما أكده المؤرخ "أغسطين بيرك"(Aaugustin Berque) الذي ذكر بأن النخبة الجزائرية تظم كل العناصر المتخرجة من المدرسة الفرنسية (أساتذة، أطباء، محامون، موظفون، معلمون ...إلخ) والمتخرجة من الجامعات الإسلامية مثل "الأزهر"، "الزيتونة"، "القرويين"، والمتكونين من طرف المرابطين[25].

وينحو الباحث "علي مراد" نفس المنحى تقريباً، إذ يرى بأن النخبة المحركة للمجتمع الجزائري في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تتكون من عدة أطياف وهم: "المثقفون ذوو التكوين الفرنسي" "والمعربون ذوو الاتجاه الإصلاحي" و"المرابطون" (نخبة الزوايا) ، وهذا ما

ذهب إليه أيضاً "محفوظ سماتي"، الذي ذكر بأن "نخبة المفرنسين" ما هي إلا جزء من نخبة الجزائر إلى جانب النخبة المعربة التي تلقت تكوينها في المساجد وفي الزوايا التي استمرت في تأدية وظيفتها التعليمية ولو بشكل بدائي في ظل الاستعمار الفرنسي[26].

وبدوره يذهب "سعد الله" كذلك في أبحاثه العديدة حول تاريخ الجزائر إلى أن أطياف النخبة متعددة بتعدد مشاربها الفكرية والثقافية، فإلى جانب الاندماجيين "الذين أضاعوا لغتهم وعادات واحترام وصداقة مجتمعهم وأداروا وجوههم نحو الحياة الأوروبية" حسب تعبيره، هناك النخبة المعربة التي سمّاها بكتلة "المحافظين"، المتكونة من "المثقفين التقليديين أو العلماء، ومن المحاربين القدماء، ومن زعماء الدين، وبعض الإقطاعيين والمرابطين"[27].

إننا نتفق بشكل كبير مع كل المفاهيم التي أدرجت كل المثقفين سواء المفرنسين أو المعربين في "نادي النخبة"، ولكن نختلف مع الكثيرين الذين جعلوا من المستوى الثقافي أو الشهادات كأساس للحكم على الأفراد أو الجماعات بالنخبوية، فأغلب ما ذكرناه من التعاريف فإنها تشير إلى "الأنتلجانسيا"، التي هي في الواقع جزء من النخبة الجزائرية فقط، ففي فترة أواخر القرن 19 ومطلع القرن20م ، هناك الكثير من الفاعلين خاصة في الساحة السياسية ليسوا من حملة الشهادات أو المثقفين فهناك الكثير ممن كانوا ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية أو البرجوازية التي فرضت نفسها عن طريق ثروتها، مثل: التجار، رجال الأعمال، موزعو جملة، وصناعيون في مزارع الزيتون، وملاّك. لقد لعب هؤلاء إلى جانب المثقفين دوراً كبيرا في الحركة المطلبية منذ ثمانينات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، والأمثلة عن ذلك كثيرة من بينها: "العريضة" الموقعة من طرف أعيان العاصمة التي بعثوا بها إلى "نابليون الثالث" سنة 1865م مذكرين إياه بوعود فرنسا سنة 1830م، وعريضة أعيان قسنطينة سنة 1887م، فقد ضمت إلى جانب بعض المثقفين والأساتذة موقعين ينتمون إلى مختلف الأوساط الاجتماعية، كالتجار والحرفيين والصنّاع والمزارعين وغيرهم، فهؤلاء البرجوازيون قد عبّروا من خلال عريضتهم التي جمعت (1700) إمضاء حسب "الأشرف" "عن وعي قومي عميق للرّد على محاولات الاستعمار الإدماجية، فقد تحدثوا باسم الجزائر كلها، وذكّروا باتفاقية الجزائر لعام 1830"[28].

ومن خلال هذا العرض نستشف بأن النخبة الجزائرية الجديدة لا تقتصر على المثقفين ذوي المرجعيتين الغربية أو العربية الإسلامية، أو مرجعية الإسلام الجزائري (الزوايا) كما كان يسميه المستشرق الفرنسي "دوتي" ، وإنّما تظم كل العناصر الجزائرية الواعية بحجم المظالم المسلطة على الجزائريين، والقادرة في الوقت ذاته على التعبير عن آلام وآمال الجزائريين لدى الدوائر الحكومية، مستخدمة في ذلك الطرق السلمية (الشرعية)، والحوار الهادئ الرّصين، وقد خلقت بذلك حركة مفصلية ومحورية عرفت تاريخياً "بالنهضة" الجزائرية التي نقلت المجتمع الذي أعياه عهد المقاومات والانتفاضات الشعبية من أسلوب النضال التصادمي إلى النضال السلمي، القائم أساساً على إعادة البعث الحضاري والوعي الفكري للأمة الجزائرية حتى تعي ما يدور حولها، فتستيقظ وتنهض لتغير من واقعها المر.

7. خاتمة:

من خلال النماذج التي قدمناها يتضح جليا أنه بات من الضروري إخضاع مصطلحات تاريخ الجزائر إلى فحص وتدقيق علمي يجعلها قادرة على حمل الحقيقة التاريخية وتصويرها بدقة، ذلك أن المصطلح هو المفتاح لفهم أي علم. وعلى مخابر البحث والمؤسسات التاريخية تقع مسؤولية اعادة النظر فيما هو متداول من مصطلحات ومفاهيم.

وآلية ذلك تكوين فرق البحث المتخصصة والعمل على انجاز قواميس على شاكلة دائرة المعارف الإسلامية، والمعلمة المغربية.

وأعتقد أن ضبط المصطلحات لما لها من حمولة إيدولوجية خطوة مهمة لتجرد من إرث المدرسة التاريخية الاستعمارية، وبواسطتها يمكن تحرير التاريخ على حد تعبير "ساحلي"، و"تحرير الماضي" على حد تعبير المؤرخ "ناصر الدين سعيدوني" الذي يرى يعتقد أنه قد آن الأوان لتحرير ماضينا من كل الاستنتاجات الخاطئة والأحكام المتحيزة والنزعات المريضة، إذ يقول: "لا يعقل أن نكون مستقلين حاضرا ونسعى جاهدين لضمان استقلالنا مستقبلاً مع بقاء ماضينا مستعمراً"[29].

7. قائمة المراجع:

- المؤلفات:

- بن عدة عبد المجيد ، الخطاب النهضوي في الجزائر 1925- 1954م، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه دلة في التاريخ الحديث والمعاصر (مرقونة)، جامعة الجزائر، 2004-2005.

- بن نبي مالك، ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة: عبد الصابور شاهين، ط3، دار الفكر، الجزائر 1986م.

- دبوز مُحَّد علي، نهضة الجزائر وثرورتها المباركة، ج3،2،1، الجزائر 2009م.

- خمري الجمعي، حركة الشبان الجزائريين والتونسيين (1900-1930م)، دراسة تاريخية وسياسية مقارنة، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر (مرقونة)، جامعة منتوري، قسنطينة، 2002-2003م

- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، ج2، ط4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م.

- عباس فرحات ، الجزائر من المستعمرة إلى الإقليم، الشاب الجزائري (1930م) متبوع بتقرير إلى الماريشال بيتان (أبريل 1944)، تر: أحمد منور، تقديم: سعد الله، دط، المطبعة الشعبية للجيش، الجزائر، 1007م

- عويمر مولود، علاوة عمارة، نصف قرن من البحث العلمي في الجامعات الجزائرية 1962-2012م، منشورات كلية الآداب والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2013م.

- غي برفيي، الطلبة الجزائريون في الجامعة الفرنسية 1880-1962م، ترجمة: م. حاج مسعود وآخرون، دط، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007م

- قيس ماضي فرّو، ثقافة النهضة العربية وخطابات الهويات الجماعية في مصر وبلاد الشّام، ط1، دار الفرابي، بيروت، لبنان، 2017.
- مريوش أحمد ، محاضرات في تاريخ الجزائر 1900-1954م، ج2، ط1، كنوز الحكمة، الجزائر 2013م.

- المقالات:

- بن شنب سعد الدين ،" النهضة العربية في الجزائر"، مجلة الآداب، ع1، الجزائر، 1964.
- بليل مُحَمَّد، " الكتابة التاريخية عند شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله بين العاطفة الذاتية والحقيقة التاريخية"، عصور الجديدة، ع 13، جامعة وهران، أفريل 2014، ص 289.
- عبيد أحمد ، "التّأريخ الجزائري: تقييم ونقد – حالة الجزائر العثمانية"، مجلة إنسانيات، ع 48-47، *CRASC*، وهران، 2010، ص 75 .
- رحماني الطيب ، "وضع المصطلح العلمي: مفهومه ومقاييسه ومواصفاته، جسور المعرفة، ع 4، ص 21.
- *BANCEl Nicolas, Françoise VERGES, La Colonisation Française, Les Essentiels Milan, paris 1931.*
- *Benhabylès Chérif, L'Algérie Française vue par un indigène, Ed : Fontana, Alger 1914.*
- *Hamet Ismaël, Les Musulmans français du Nord de l'Afrique, Librairie Armand Colin, Paris 1906*
- *Gilbert Meynier, L' Algérie Rèvèlèe -La guerre 1914-1918 et Le premier quart du xx° siècle- ; Librairie Droz, Genève,1980.*

- Ali Merad , le Réformisme musulman en Algérie de 1925 à1940 Essai d'histoire religieuse et social, Ed el Hikma, Alger 1999.

- A. Berque, « Les Intellectuels Algériens », In : R. A, V91, N° 410, 1947, p. 1

- BOUKECHOUR Mohammed salah BOUKECHOUR, « L'écriture de l'Histoire de l'Algérie, Période Coloniale (1830-1962) : Sources et Perspectives », Revue académique des études humaines et sociales, N 16, Université Hassiba Benbouli Chlef, Algérie, juin 2016.

- Guy Pervillé, « L'élite intellectuelle, l'avant-garde militante et le peuple algérien » , In: Vingtième Siècle, Revue d'histoire, N°12,Paris,octobre-décembre 1986,pp. 51-58.

8. هوامش:

[1]- انظر : - مولود عويمر، علاوة عمارة، نصف قرن من البحث العلمي في الجامعات الجزائرية 1962-2012م، منشورات كلية الآداب والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2013م. وكذلك:

- Mohammed salah BOUKECHOUR, « L'écriture de l'Histoire de l'Algérie, Période Coloniale (1830-1962) : Sources et Perspectives », Revue académique des études humaines et sociales, N 16, Université Hassiba Benbouli Chlef, Algérie, juin 2016. p. 3- 8

[2]– أحمد عبيد، "التّأريخ الجزائري: تقييم ونقد – حالة الجزائر العثمانية"، مجلة إنسانيات، ع 47-48، CRASC، وهران، 2010، ص 75.

[3]– مُحَمَّد بليل، " الكتابة التاريخية عند شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله بين العاطفة الذاتية والحقيقة التاريخية"، عصور الجديدة، ع 13، جامعة وهران، أفريل 2014، ص 289.

[4]– عبيد، المرجع السابق، ص 76.

[5]– الطيب رحماني، "وضع المصطلح العلمي: مفهومه ومقاييسه ومواصفاته، جسور المعرفة، ع 4، ص 21.

[6]– مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة: عبد الصابور شاهين، ط3، دار الفكر، الجزائر 1986م، ص 09.

[7] -Nicolas BANCEl, Françoise VERGES, La Colonisation Française, Les Essentiels Milan, paris 1931, p.4.

[8]– انظر محاضرة المفكر مولود قاسم نايت بلقاسم في ملتقى الفكر الإسلامي بالجزائر

[9] - Nicolas BANCEl, Françoise VERGES, op-cit, p. 6.

[10]– انظر: قاموس أو لسان العرب.

[11] –أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1900–1930، ج2، ط4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م، ص 73.

[12] - Meynier Gilbert, L' Algérie Rèvèlèe -La guerre 1914-1918 et Le premier quart du xx° siècle- ; Librairie Droz, Genève,1980, p.7.

[13] – أحمد مريوش، محاضرات في تاريخ الجزائر 1900–1954م، ج2، ط1، كنوز الحكمة، الجزائر 2013م، ص ص 12–13.

[14]– قيس ماضي فرّو، ثقافة النهضة العربية وخطابات الهويات الجماعية في مصر وبلاد الشّام، ط1، دار الفرابي، بيروت، لبنان، 2017، ص 91.

[15]– مُحَمَّد علي دبوز، نهضة الجزائر وثرورتها المباركة، ج1،2،3، 2009، الجزائر.

[16]– سعد الدين بن شنب،" النهضة العربية في الجزائر"، مجلة الآداب، ع1، الجزائر، 1964.

[17]– سعد الله، المرجع السابق، ص 130 وما بعدها.

[18] – عبد المجيد بن عدة، ، الخطاب النهضوي في الجزائر 1925– 1954م، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه دلة في التاريخ الحديث والمعاصر (مرقونة)، جامعة الجزائر، 2004–2005 ، ص 40.

[19] انظر تقديم (Préface) ج. مرسي في:

- Chérif Benhabylès, L'Algérie Française vue par un indigène, Ed : Fontana, Alger 1914. PP. 1-2.

[20]– الجمعي خمري، حركة الشبان الجزائريين والتونسيين (1900–1930م)، دراسة تاريخية وسياسية مقارنة، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر (مرقونة)، جامعة منتوري، قسنطينة، 2002–2003م، ص 122.

[21]– فرحات عباس ، الجزائر من المستعمرة إلى الإقليم، الشاب الجزائري (1930م) متبوع بتقرير إلى الماريشال بيتان (أبريل 1944)، تر: أحمد منور، تقديم: سعد الله، دط، المطبعة الشعبية للجيش، الجزائر، 1007م، ص ص 65–66.

[22] - Ismaël Hamet, Les Musulmans français du Nord de l'Afrique, Librairie Armand Colin, Paris 1906, p.182 et suiv

[23] -Ageron, Mouvement jeune algérien ,p. 220.

[24]– غي برفيي، الطلبة الجزائريون في الجامعة الفرنسية 1880–1962م، ترجمة: م. حاج مسعود وآخرون، دط، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007م، ص ص 14–15.و نظر دراسته كذلك:

- Pervillé Guy, « L'élite intellectuelle, l'avant-garde militante et le peuple algérien » , In: Vingtième Siècle, Revue d'histoire, N°12,Paris,octobre-décembre 1986,pp. 51-58.

[25] - A. Berque, « Les Intellectuels Algériens », In : R. A, V91, N° 410, 1947, p. 1

[26] -Ali Merad , le Réformisme musulman en Algérie de 1925 à1940 Essai d'histoire religieuse et social, Ed el Hikma, Alger 1999, p p. 44 -45.

[27]– سعد الله، المرجع السابق، ج2، ص 162.

[28]– مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة: حنفي بن عيسى،ط1، م.و.ك، الجزائر، 1983م، ص22.

[29]– سعيدوني، "نحو نظرة جديدة إلى تاريخنا الجزائري"، في: الجزائر منطلقات وأفاق، ط3، البصائر، الجزائر 2012، ص 211.